البحث العلمي وعلاقته بالمحيط الاجتماعي الثقافي
رسائل ماجستير قسم العقيدة ج.أ.ع نموذجا
دراسة تحليلية نقدية

أ.د. عليوان اسعيد
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإنسانية –قسنطينة

مقدمة:

يعد البحث العلمي اليوم أساس التقدم الحضاري بمختلف جوانبه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية والأخلاقية وغيرها، وما المكانة والهيمنة التي صارت للغرب اليوم على شعوبنا إلا نتاج للبحث العلمي الواقعي المستمر، ومراكز إنتاج هذا البحث هو الجامعات والمخابر العلمية في مختلف فروع المعرفة مما يجعل استحالة تحقيق أي مجتمع لأي تنمية دون الاعتماد على البحث العلمي الجاد.

ومن أهم مجالات هذا البحث الجاد الرسائل الجامعية وما تنتجه مختلف المخابر.

ومن ضمن مجالات هذا البحث. مجال العلوم الإسلامية الذي يعد من الأهمية بمكان في التأثير في المحيطين الاجتماعي والثقافي إن إيجابا أو سلبا ولاسيما في مجتمع يتسم بالصراع الفكري والمذهبي والإيديولوجي مما يجعل توجيه البحث في هذا المجال ضرورة ملحة، وحاجة حيوية لتحقيق التناسق الاجتماعي والثقافي وتكامل كل منهما. ولاسيما أنه رغم ما وصل إليه تطور البحوث في مجال العلوم الإسلامية إلا أنه لازال بعيدا عن المقاييس الدولية

لتطور البحث العلمي ولاسيما في الجزائر التي تعد حُديثة العهد بهذا المجال إذا ما قورنت بغيرها. وقد جعلنا عنوان ورقتنا "البحث العلمي وعلاقته بالمحيط الاجتماعي الثقافي رسائل ماجستير قسم العقيد بجامعة الأمير نموذجا". وقد حللنا هذه الورقة كالآتي:

* ضبط المفاهيم: البحث العلمي، المحيط الاجتماعي، المحيط الثقافي.

* رصد مختلف رسائل الماجستير المقدمة بقسم العقيدة ومقارنة الأديان، تخصص عقيدة (جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة).

* الإشارة إلى علاقتها أو عدم علاقتها بالمحيط الاجتماعي الثقافي.

* تقويمها منهجيا.

* تقويمها معرفيا.

*** تقديم الحل للمشكلة.**

مفهوم البحث العلمي:

هذه العبارة مركبة من كلمتين هما «البحث» و«العلمي».

معنى البحث: مصدر الفعل بحث، ومعناه طلب، فتش، تقصى، تتبع، تحرى، سأل، اكتشف... فيكون معنى البحث لغويا: الطلب والتفتيش وتقصي حقيقة من الحقائق أو أمرا من الأمور[1]، أو هو «التفتيش بقصد الوصول إلى الحقيقة»[2].

معنى العلمي: العلمي كلمة منسوبة إلى العلم، والعلم يعني المعرفة والدراية وإدراك الحقائق[3]. وإدراك الشيء على ما هو به[4]. كما يعني لإحاطة والإلمام بالحقائق وكل ما يتصل بها.

وبهذا فإن البحث العلمي يعني «التقصي المنظم بإتباع أساليب ومناهج علمية محددة للحقائق العلمية بقصد التأكد من صحتها أو تعديلها أو إضافة الجديد لها»[5]. أو هو التقصي المنظم.... إلى آخر ما ذكرنا بغرض الوصول إلى الحقيقة في الميدان المبحوث.

مفهوم المحيط الاجتماعي:

المقصود بالمحيط هنا هو البيئة والوسط الذي يعيش فيه الإنسان ولذلك قيل: «المرء نتاج محيطه الاجتماعي»[6] ويفترض أن يكون هذا المحيط الاجتماعي نسقا اجتماعيا، ويقصد به الإشارة إلى المجتمع وكيف تكاملت نظمه تكاملا وثيقا. وكيف رتبت الأجزاء التي يتكون منها المجتمع في إطار أو شكل منسق، وكيف يقوم المجتمع بفضل تكامل نظمه بعضا مع بعض واتصال بعضها ببعض واتصال الأفراد بالنظم التي يخضعون لها واتصال الهيئات الاجتماعية بعضها ببعض... كيف يؤدي ذلك كله إلى وصول المجتمع إلى تحقيق أغراضه وغاياته الاجتماعية، فيصبح النسق الاجتماعي عبارة عن الصلات الموجودة بين أفراد المجتمع وهيئاته ووظيفة كل هيئة واتصالها بوظائف الهيئات الأخرى ووظائف النظم الاجتماعية، وصلة هذه الوظائف بعضها ببعض والغاية التي يستهدفها كل نظام... وكيف يؤدي ذلك كله إلى قيام المجتمع بتحقيق أهدافه[7].

ولما كان مجتمعنا كما هو حاليا لا نسقا وإنما هو مجتمع التوتر والصراع والتفاوت الطبقي والانحراف وغير ذلك فمن المفترض أن يساهم البحث العلمي ولاسيما في مجال العقيدة الإسلامية في إنشاء هذا النسق الاجتماعي وهو ما يطلق عليه في علم الاجتماع بالتكامل الاجتماعي الذي يعرف بأنه «تكيف الجماعات والأفراد بطريقة تؤدي إلى تكوين مجتمع منظم، وبحيث تؤدي هذه الجماعات أو هؤلاء الأفراد أوجه النشاط الذي ينصرفون إليه بأقل قدر من التوتر أو النزاع، ويكون الفرد متكيفا مع مجتمعه عندما يشترك اشتراكا إيجابيا في وجوه نشاط هذا المجتمع ويتبنى المثل العليا الجماعية»[8]. ويتحقق هذا التكامل إذا أحدث البحث العلمي ولاسيما في مجال العقيدة تغيرا اجتماعيا، ويقصد بالتغير الاجتماعي أنواع التطور التي تحدث تأثيرا في النظام الاجتماعي أي التي تؤثر في بناء المجتمع ووظائفه[9].

فهل أبحاث العقيدة ذات مستوى فعال مؤثر يحدث هذا التغير الاجتماعي المنشود؟

مفهوم المحيط الثقافي:

ذكرنا قبلا أن المقصود بالمحيط هو البيئة والوسط الذي يعيش فيه الإنسان، ويفترض أن يكون هذا المحيط مبنيا على نسق ثقافي أو يحتويه نسق ثقافي، ويقصد بالنسق الثقافي رسم صورة للعلاقات الاجتماعية تحت ظل ثقافة معينة أو للنظم الاجتماعية التي تتألف منها تلك الثقافة والوظائف التي تقوم بها وصلتها بعضها ببعض، واعتماد بعضها على بعض اعتمادا متبادلا، والتكامل الموجود بينها، ويفرق بين النسقين الاجتماعي والثقافي بأن الأول يكون في مجتمع معين وزمن معين، بينما الثاني يكون خاصا بثقافات معينة قد تشمل عدة مجتمعات كما هو حال الثقافة الإسلامية أو النسق الإسلامي[10].

ولما كان مجتمعنا الآن يعاني من تمزق ثقافي حتى على مستوى الفكر الإسلامي ذلك أن مجتمعنا كان يتميز ثقافيا بعقد الأشعري وفقه مالك وبطريقة الجنيد السالك، ولكنه الآن صار شيعا ومذاهب من وهابية وشيعية وطرقية ومذاهب سياسية وإيديولوجية متصارعة، وعنف وحشي لم تر الجزائر له مثيلا وإجرام متعدد الجوانب وغير ذلك مما أحدث شرخا في ثقافتنا. وهنا نتساءل: هل البحث العلمي في المجال العقدي قادر على ترميم هذا الشرخ الثقافي وهل هذا البحث قادر على إحداث التغير الثقافي المنشود الذي يجب أن يحدث في كل عنصر من عناصر الثقافة كالفن والعلم والصناعة والفلسفة واللغة والأدب وأشكال وقواعد النظام الاجتماعي[11] وأن ينتج التكامل الثقافي الذي يقتضي استبعاد الغريب عن الثقافة وتقويم المعوج وإيجاد التناسق بين العادات والمعتقدات، وبين التقاليد والأفعال وجعل النظام الثقافي يحتفظ بطابعه عندما تطرأ عليه تغيرات أو تظهر عليه تجديدات عندما يراد مثلا إدخال عادات أو معتقدات جديدة، ورغم ذلك يظل المجتمع محافظا على طابعه[12]؟

هل البحث العلمي في مجال العقيدة قادر على إزالة ثقافة الحقد من المجتمع وإطفاء نار التفرقة بين المذاهب ودفع عجلة البحث العلمي إلى الأمام أم أنه لا يزال في أغلب الدراسات يلوك ما قيل ويتبنى ما لا يفيد وينطلق عن أفكار مسبقة ليصل إلى ما قرره سابقوه دون تعديل أو تطوير أو خروج عن النطاق المفروض عليه منذ عصور الانحطاط؟

ولنشرع الآن في عرض مختلف الرسائل التي قدمت في قسم العقيدة ومقارنة الأديان تخصص عقيدة، مستوى ماجستير وذلك منذ افتتحت الدراسات العليا إلى الآن حيث تناولنا أغلب الرسائل ولم يشذ منها إلا الذي لم نجد اختصاصه محددا، وقد أوردناها مرتبة حسب تاريخ المناقشة.

عرض رسائل الماجستير:

الرسالة	التقدير	تاريخ المناقشة
- منهج المودودي في صياغة العقيدة الإسلامية	مشرف جدا	30 أفريل 1992
- القياس بين المنطق وأصول الفقه	مشرف	28 أكتوبر 1993
- أبو الحسن الشاذلي حياته ومدرسته في التصوف	مشرف جدا	1995/3/14
- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور مذهبه وآراؤه العقدية	مشرف جدا	26 جوان 1995
- آراء الشيخ محمد بن يوسف اطفيش العقدية	مشرف جدا	19 مارس 1996
- النسفي وآراؤه العقدية	مشرف جدا	20 مارس 1996
- ظاهرة التكفير بين الفرق الإسلامية	مشرف	1996/12/07
- محمد إقبال وآراؤه العقدية	مشرف جدا	1997/7/26
- صفات الله في القرآن والتوراة	مشرف	1997/9/20
- الفكر العقدي عند سيد قطب	مشرف	1997/9/21
- نقد ابن تيمية للكسب الأشعري	مشرف جدا	1997/9/22
- منهج ابن تيمية في الإلهيات	مشرف جدا	1998/6/20
- الكسب في العقيدة من خلال مباحث المتكلمين	مشرف جدا	1998/6/21

- الخوارج وآراؤهم العقدية	مشرف	13 أفريل 1999
- النبوة بين الفلاسفة والمتكلمين	مشرف	14 فبراير 2000
- ابن حزم وآراؤه العقدية	مشرف جدا	25 جوان 2000
- الرؤيا الاستشراقية للفلسفة الإسلامية عند هنري كوربان	مشرف جدا	28 جوان 2000
- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مقاومة الانحرافات الطرقية (1931-1956م)	مشرف جدا	2000/07/04
- الاستدلال بخبر الآحاد في العقيدة	مشرف جدا	2001/01/22
- الآراء العقدية في فلسفة إخوان الصفاء الألوهية والنبوة	مشرف جدا	14 ماي 2001
- عقيدة الصلب والفداء عند النصارى دراسة نقدية تحليلية	مشرف جدا	3 مارس 2002
- بديع الزمان النورسي ومنهجه في عرض العقيدة	مشرف جدا	4 مارس 2002
- الفكر السياسي عند ابن تيمية ومدى تأثيره على الشباب الجزائري	جيد	2002/3/05
- النظر العقلي عند محمد بن يوسف السنوي	جيد	2003/5/21
- أسس السلم الإنساني في العقيدة الإسلامية	قريب من الجيد	14 جوان 2003
- ظاهرة التأويل عند المتكلمين دراسة تحليلية للتأويل بين السلف والمعتزلة والأشاعرة	مشرف جدا	23 جوان 2003
- منهج الإمام الجويني في الاستدلال على العقيدة		2003/07/06
- البعد الفني لعقيدة التوحيد الشعر والخط العربي نموذجا	مشرف جدا	12 جويلية 2003
- البعد العقدي في الثورة الجزائرية	قريب من الجيد	2003/07/12
- القياس عند ابن تيمية	مشرف جدا	2003/07/13
- البعد العقدي للأمثال القرآنية	قريب من الجيد	4 نوفمبر 03
- منهج القرآن في الاستدلال على عقيدة الألوهية	مشرف	20 أفريل 2004

- التجديد في الفكر العقدي الإسلامي المعاصر في الجزائر - الشيخ مبارك الميلي نموذجا -	جيد	2004/10/30
- مناهج المستشرقين في دراسة الوحي والنبوة في العقيدة الإسلامية		27 فيفري 2004
- التجربة الإيمانية وبناء الإنسان بين مالك بن نبي وطه عبد الرحمن	جيد	2005/4/26
- موقف ابن قيم الجوزية من التصوف	جيد	2005/07/11
- أصول العقيدة في سورة يس وأثرها في الفرد والمجتمع		05/07/12
- البعد العقدي الإسلامي للبيئة وأثره في المحافظة عليها	جيد	2005/10/23
- التسخير في القرآن الكريم سورة النحل نموذجا	جيد	2006/5/15
- ماهية الإنسان في فكر الراغب الأصفهاني دراسة عقدية تحليلية نقدية.	مشرف جدا مع التوصية بالطبع والنشر	2006/07/08
- جهود محمد رشيد رضا التجديدية في علم العقيدة الإسلامية النبوة نموذجا	جيد	2006/12/19
- نسبية الزمن بين القرآن والعلم	جيد	2006/12/20
- دلائل التوحيد وتأثيره في الحياة في القرآن الكريم سورة الأنعام نموذجا		2007/02/15
- منهج الرازي في الاستدلال بالآيات الكونية على عقيدة البعث من خلال تفسيره مفاتيح الغيب	جيد	2007/07/09

هذه هي الرسائل المناقشة ونشرع الآن في:الإشارة إلى علاقة هذه الرسائل أو عدم علاقتها بالمحيط الاجتماعي الثقافي.

الرسائل السابقة والمحيط الاجتماعي الثقافي:

يلاحظ أن هذه الرسائل مرتبطة بالتراث أكبر من ارتباطها بالمحيط الثقافي الاجتماعي. بحيث نجد أكثرها إما بحث أعلام أو موضوعات تراثية. وما

له علاقة بالواقع الاجتماعي الثقافي قليل جدا، ومن هنا فإنه لو فرضنا جدية هذه الرسائل فإنها تظل حبيسة الجانب النظري المعرفي الذي يربط الإنسان إلى الماضي - رغم أهميته - لا الذي يدفعه إلى تغيير الواقع أو يدفعه إلى الأمام في مجال البحث العلمي. العالمي والبحث في الذات ليس عيبا، ولكن العيب أن توجه أغلب الرسائل لدراسته، وأن تدرسه وهي حبيسته.

- التقويم المنهجي:

الأمانة العلمية تقتضي قبل الإشارة إلى تقويم الدراسات السابقة أن نذكر بأن مستواها العلمي من الناحيتين المنهجية والمعرفية لا يقل عن مستوى الدراسات المنجزة في مستواها في الجامعات الجزائرية الأخرى، ومن هنا فإن تقييمنا لها لا يقلل من أهميتها. ونلاحظ منهجيا:

أن نسبة معتبرة من هذه الدراسات يفتقد إلى إطار منهجي علمي متكامل، فمنها من يفتقد إلى بعض عناصر المقدمة بل لا يعرف صاحبها كيف يضبط الإشكالية ولا كيف يوجد علاقة بينها وبين فصول البحث التي يفترض أن تكو تحليلا وحلا للإشكالية.

كما يلاحظ في كثير منها الخلط بين المنهجيات المختلفة في التهميش وعدم التزام منهجية علمية محددة.

يلاحظ أيضا ادعاء استخدام مناهج للتحليل ولكن الباحث عندما يسأل عنها في المناقشة لا يعرف معناها، مما يعني أن بعض هذه الدراسات لا تعتمد عمليا أي منهج واضح المعالم وهو ما يؤثر سلبا على سير الدراسة.

- التقويم المعرفي:

هذه الرسائل بعضها جيد ولكن كثيرا منها كما يلاحظ من خلال عناوينها أنها عناوين تغلب عليها العمومية وهو ما يتناقض مع طبيعة البحث العلمي المعاصر الذي يفرض على الباحث أن يأخذ جزئية صغيرة ويتعمق في دراستها عموديا وهو ما يؤدي إلى تقدم البحث العلمي.

كما يلاحظ الاتجاه إلى الكم على حساب التحليل والدقة والفهم وهو ناتج من جهة عن عموميات المواضيع ومن جهة أخرى عن جهل بعض الباحثين بمحتوى ما يكتبون بسبب روح النقل المتفشية بدون فهم والتسرع في إنجاز البحث بأية كيفية لأنه في نظر هذا الصنف من الباحثين تسوية ملف لا غير وما يؤسف له أننا نجد بعض هؤلاء يكتب فصولا لا يفقه منها شيئا لأنه يجهل التخصص الذي تنتمي إليه ولم يكلف نفسه دراسته وفهمه.

- الروح الدغماتية، وهي ناتجة عن ضعف التحليل وانعدام روح النقد فالباحث ينطلق من خلفية معينة ناتجة عن أفكار مسبقة، ويتم البحث من خلالها بعين واحدة من بدايته إلى نهايته. فإن كان الباحث ينتمي إلى مذهب معين فإنه ينطلق في البحث من أن كل ما في مذهبه صواب حتى ولو خالف القرآن الكريم. فإن كان وهابيا فابن تيمية من خلال الوهابية هو القرآن والسنة، وإن كان طرقيا فكل ما قاله الصوفية صواب حتى ولو كان كفرا وهكذا الأمر بالنسبة للاتجاهات الأخرى . وهذا يعني بوضوح الافتقار إلى خاصية من أهم خصائص التفكير العلمي هي الشك المنهجي فالباحث لكي يبدع يجب أن ينطلق في موضوع بحثه منطلق الجاهل به[13] ولهذا نجد البحوث في كثير من الأحيان بدون إشكالية واضحة محددة مضبوطة كما ينتج عن هذه البحوث السطحية وعدم التحرر المذهبي وازدياد ضيق أفق الباحث لأنه يدخل البحث كما قلنا بأفكار مسبقة دغماتيا فلا يستفيد ولا يفيد ولا يتحرر من الأفكار الخاطئة والأوهام. وإذن كيف يمكن لأبحاث كهذه أن تحل المشكلات الاجتماعية وتنشئ نسقا ثقافيا في المجتمع؟

ولاسيما مع انعدام روح النقد التي إن وجدت فهي لنقد المخالفين مذهبيا لا لنقد موضوع البحث، ولا نقصد بهذا أن الباحث يجب أن يتخلى بالضرورة عن مذهبه، وإنما نقصد النظرة النقدية داخل المذهب والنظرة الموضوعية خارج

مما يعني أن البحث العلمي بخير، ولكننا عندما نحضر المناقشات في كثير من الأحيان نخرج بقناعات تتمثل في تهافت الرسالة. والمسؤولية هنا يتحملها الأستاذ المشرف من جهة ولجنة المناقشة من جهة أخرى.

والحل في تصورنا يتمثل في جوانب منها:

- البحوث العقدية التراثية يجب أن توجه توجيها يعيد النظر فيما يقبل الإعادة بغية لمّ الشمل وإزالة التطرف ونشر روح المحبة والوئام بين المسلمين.

- تسليط الأضواء على ما لم يبحث من تراثنا أو ما يحتاج إلى إضاءة جوانب منه لم تضأ بعد.

- جدية المشرفين في الإشراف وإطلاعهم على مختلف مناهج وأدوات البحث العلمي لتجنب الضعف المنهجي.

- توجيه أنظار الباحثين إلى الواقع الاجتماعي الثقافي المحيط من جهة، والواقع العالمي من جهة أخرى وذلك حتى يكون الباحث ابن عصره مرتبطا بماضيه غير مرتهن به إلا ما كان منه ضابطا لهويته.

- تشديد المشرفين على طلابهم فلا يقبلون منهم إلا ما كان ذا قيمة علمية مبنيا على قواعد منهجية سليمة وكذا لجان المناقشة.

والله ولي التوفيق

الهوامش:

---

[1] عمار بوحوش ومحمد محمود الذنيبات، مناهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999م، ص11.

[2] أيمن سعد سليم، أساسيات البحث القانوني، دط، دار النهضة العربية، القاهرة، 2003م، ص11.

[3] عمار بوحوش ومحمد محمود الذنيبات، المرجع السابق، ص12.

[4] الجرجاني، التعريفات، دط، الدار التونسية للنشر، 1971م، ص82.

[5] عمار بوحوش ومحمد محمود الذنيبات، المرجع السابق، ص12.

[6] المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المعجم العربي الأساسي، لاروس، 1989م، ص365.

[7] الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة «يونسكو»، معجم العلوم الاجتماعية، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975م، ص ص600، 601.

[8] المرجع نفسه، ص174.

[9] المرجع نفسه، ص165.

[10] المرجع نفسه، ص601.

[11] المرجع نفسه، ص165.

[12] المرجع نفسه، ص175.

[13] توفيق الطويل، أسس الفلسفة، ط65، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976م، ص340.

[14] من هذه الخصائص: الدقة والتحليل، والموضوعية والنزاهة، والثقافة الواسعة (فؤاد ذكريا، التفكير العلمي، ط3، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص ص50، 51، أيضا توفيق الطويل، المرجع السابق، ص ص202 206-207).